وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تكريت/ كلية التربية للبنات

قسم علوم القرآن والتربية الاسلامية

الدراسات الاولية/ بكالوريوس

المحاضرة الثانية/ معجزة الاسراء والمعراج

المرحلة الثانية

مدرس المادة : م.م. استبرق سالم مولود

الاميل الجامعي :estabraq.salim@tu.edu.iq

معجزة الإسراء والمعراج

ويقصد بالإسراء الرحلة التي أكرم الله بها نبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، أما المعراج فهو ما أعقب ذلك من العروج به إلى طبقات السماوات العلا ثم الوصول به إلى حد انقطعت عنده علوم الخلائق من ملائكة وإنس وجن، كل ذلك في ليلة واحدة.
وقد اختلف في ضبط تاريخ هذه المكرمة الإلهية هل كانت في العام العاشر من بعثته (صلّى الله عليه وسلم) أم بعد ذلك. والذي رواه ابن سعد في طبقاته الكبرى أنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا.
وجمهور المسلمين على أن هذه الرحلة كانت بالجسم والروح معا، ولذلك فهي من معجزاته الباهرة التي أكرمه الله بها. أما قصة ذلك فقد رواها البخاري ومسلم بطولها. وفيها أنه (صلّى الله عليه وسلم) أتي بالبراق، وهو دابة فوق حمار ودون بغل، يضع حافره عند منتهى طرفه.. وفيها أنه (صلّى الله عليه وسلم) دخل المسجد الأقصى فصلى فيه ركعتين، ثم أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاختار عليه الصلاة والسلام اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة.. وفيها أنه عرج به (صلّى الله عليه وسلم) إلى السماء الأولى فالثانية فالثالثة.. وهكذا حتى ذهب به إلى سدرة المنتهى وأوحى الله إليه عندئذ ما أوحى.. وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين، وهي في أصلها خمسون صلاة في اليوم والليلة .
ولما كانت صبيحة اليوم التالي وحدث رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) الناس بما شاهد، طفق المشركون يجمع بعضهم بعضا ليتناقلوا هذا الخبر الطريف ويضحكوا منه. وتحداه بعضهم أن يصف لهم بقايا بيت المقدس ما دام أنه قد ذهب إليه وصلى فيه، والرسول حينما زاره لم يخطر في باله أن يجيل النظر في أطرافه ويحفظ أشكاله وعدد سواريه، فجلّى له الله عز وجل صورته بين عينيه وأخذ يصفه لهم وصفا تفصيليا كما يسألون. روى البخاري ومسلم عن رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) أنه قال: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» . أما أبو بكر (رضي الله عنه) فقد حدثه بعض المشركين عما يقوله الرسول، رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه، فقال: «إن كان قال ذلك لقد صدق، إني لأصدقه على أبعد من ذلك» .
وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) كيفية الصلاة وأوقاتها. وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحا ومثليهما مساء كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام.

العبر والدلالات:

أولا- كلمة عن الرسول والمعجزات:
يولع بعض الباحثين بالمبالغة في تصوير حياة النبي (صلّى الله عليه وسلم) على أنها حياة بشرية عادية، وذلك من خلال الإطناب في بيان أن حياته (صلّى الله عليه وسلم)، لم تكن معقدة وراء الخوارق والمعجزات، بل كان منكرا لها غير عابئ بها ولا ملتفت إلى المطالبين بها، وأنه كان يؤكد دائما أن المعجزات والخوارق ليست من شأنه وليس له إليها سبيل، ويكثرون في هذا من الاستشهاد بمثل قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ بحيث يخيل إلى القارئ أو السامع أن سيرته (صلّى الله عليه وسلم) كانت بعيدة كل البعد عن المعجزات والآيات التي يؤيد الله بها في العادة أنبياءه الصادقين. وإذا أمعنا في منبع هذه النظرية عن رسول الله (صلّى الله عليه وسلم)، نجد أنها في الأصل

فكرة بعض المستشرقين والباحثين الأجانب من أمثال غوستاف لوبون، وأوجست كونت، وهيوم، وجولد زيهر، وغيرهم. وأساس هذه النظرية عندهم وسببها، هو عدم الإيمان بخالق المعجزات أولا. ذلك لأن الإيمان بالله عز وجل إذا استقر في النفس، سهل الإيمان بكل شيء بعد ذلك ولم يبق شيء في الدنيا يستحق أن يسمى في الحقيقة معجزة.

ثم تلقف هذه النظرية منهم، أناس من المسلمين، كان من سوء حظ العالم الإسلامي، أن جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الأجانب دون أي مؤيد سوى الافتتان بزخرف خداعهم وانخطاف أبصارهم بمظهر النهضة العلمية التي هبت في أنحاء أوربا. وكان من هؤلاء المسلمين الشيخ محمد عبده، ومحمد فريد وجدي، وحسين هيكل..

ثم نظر محترفو التشكيك وأرباب الغزو الفكري، فوجدوا في هذا الذي يقوله بعض من المسلمين أنفسهم ما يفتح لهم آفاقا وميادين جديدة لغزوهم الفكري وتشكيك المسلمين بدينهم، يغنيهم عن وسيلتهم العتيقة.. وسيلة الحرب المباشرة للعقيدة الإسلامية وغرس الأفكار الإلحادية في الرؤوس. فراحوا يروجون صفات معينة لرسول الله (صلّى الله عليه وسلم) كالبطولة والعبقرية والقيادة في عبارات من الإعجاب والإطراء، ويبالغون في الوقت ذاته في تصوير حياته العامة بعيدة عن كل ما لا يدركه العقل من المعجزات وخوارق العادات، كي يتم لهم إنشاء صورة جديدة للنبي (صلّى الله عليه وسلم) في أذهان المسلمين مع مرور الزمن، قد تكون صورة (محمد العبقري) أو تكون صورة (محمد القائد) أو تكون صورة (محمد البطل) ولكنها لا ينبغي أن تكون على أي حال من الأحوال صورة (محمد النبي والرسول) إذ تكون جميع حقائق النبوة بما يحف بها ويستلزمها من وحي.. وغيبيات وخوارق، قد قذف بها- بعامل هذا الترويج لألقاب العبقرية والبطولة البعيدين عن المعجزات والخوارق- إلى عالم ما يسمونه: الميثيولوجيا (الأساطير) ذلك لأن ظاهرة الوحي والنبوة تعتبران في رأس المعجزات.

وحينئذ لا ينبغي أن يتصور- بطبيعة الحال- أي سبب لتكاثر مختلف الناس والأمم من حول الرسول وانضوائهم تحت لوائه وانسياقهم في دعوته، إلا التأثر بعبقريته ومقومات القيادة في حياته. وانظر! .. فإن هذا القصد الذي يهدفون إليه يتجلى واضحا في إشاعة كلمة (محمديين) كتسمية جديدة بدلا عن: مسلمين.

ولكن ما هو موقع هذا التخيّل والتّصور من حقيقة أمر محمد (صلّى الله عليه وسلم) وشأنه، إذا ما حاولنا استجلاء الحقيقة على ضوء البحث المنطقي والموضوعي؟

أولا: إذا عدنا إلى التأمل في ظاهرة الوحي التي تجلت واضحة في حياته عليه الصلاة والسلام (وقد مرّ البحث فيها بتفصيل واف) رأينا أن أبرز صفة في حياته عليه الصلاة والسلام هي (النّبوة) لا شك في ذلك ولا ريب، والنّبوة هي من المعاني الغيبية التي لا تخضع لمقاييسنا المحسوسة وإذن فإن معنى المعجزة الخارقة قائم في أصل كيانه عليه الصلاة والسلام. فلا يتسنى نفي المعجزات والخوارق عنه (صلّى الله عليه وسلم) إلا بهدم معنى النّبوّة نفسها ونسخها من حياته، وذلك يساوي بالبداهة إنكار الدين نفسه. ولئن لم يصرح بهذه النتيجة بعض الباحثين من المستشرقين، مكتفين ببيان ذكاء الرسول ومدى عبقريته وشجاعته وسياسته للأمور، فذلك اكتفاء منهم برسم المقدمات عن بيان النتائج، إذ النتيجة تأتي بطبيعتها بعد التسليم بمقدماتها.

علــى أن كثيــرين صــرّحوا بالنتيجــة، بعــد أن ضــاقت بهــا صــدورهم، مثــل شــبلي شميل حينما سمى الإيمان بالدين إيمانا بالمعجزة المستحيلة ! ..
وأنــت خبيــر أنـــه لا معنـــى للبحــث فـــي إنكـــار جزئيـــات المعجـــزات أو إثباتهـــا، إذا كان أصل الدين محل شك أو إنكار.
ثانيـا: إذا تأملنــا فـــي ســيرته (صــلّى الله عليـــه وســلم) ووقـــائع حياتـــه، وجـــدنا أن الله ســبحانه وتعــالى أجــرى معجــزات كثيــرة علــى يديــه، لا منــاص مــن قبولهــا ولا مجـال لردهــا، لأنهــا نقلــت إلينـا بالأسـانيد الصـحيحة المتــواترة التــي ترتقـي بــالفكر والعقــل إلــى درجــة القطــع واليقــين. فمــن ذلــك حــديث نبــع المــاء مــن بــين أصــابعه الشــريفة، أخرجـــه البخـــاري فـــي كتـــاب الوضـــوء، ومســـلم فـــي كتـــاب الفضـــائل، ومالــك فــي الموطــأ فــي كتــاب الطهــارة. وغيــرهم مــن أئمــة الحــديث بطــرق مختلفــة كثيــرة، حتــى نقــل الزرقــاني عــن القرطبــي قولــه: «إن نبــع المــاء مــن بــين أصــابعه (صــلّى الله عليــه وســلم) تكــرر فــي عــدة مــواطن فــي مشــاهد عظيمــة، وورد مــن طــرق كثيــرة يفيــد مجموعهــا العلــم القطعــي المســتفاد مــن التــواتر المعنــوي» .
ومــن ذلــك حــديث انشــقاق القمــر علــى عهــده (صــلّى الله عليــه وســلم) حينمــا ســأله المشــركون ذلــك، فقــد أخرجـــه البخـــاري فـــي كتـــاب أحاديـــث الأنبيـــاء، وأخرجـــه مسـلم فــي كتــاب صــفة القيامــة، وأخرجــه غيرهمــا مــن عامــة علمــاء الحــديث. وقــال ابــن كثيـــر: «وقـــد وردت بـــذلك الأحاديـــث المتـــواترة بالأســـانيد الصـــحيحة..» .
وهــذا أمــر متفــق عليــه بــين العلمــاء: أنــه وقــع فــي زمــان النّبــي (صــلّى الله عليــه وســلم)، وأنـــه كـــان إحـــدى المعجـــزات البـــاهرات . ومـــن ذلـــك حـــديث الإســـراء والمعــراج الــذي نســوق هــذا البحــث بمناســبته، وهــو حــديث متفــق عليــه لا تنكــر قطعية ثبوته. وهو بإجماع جماهير المسلمين من أبرز معجزاته.
ومــن العجيــب أن هــؤلاء الــذين لا يفتــأون يروجــون صــفة العبقريــة، والعبقريــة وحــدها للرســول (صــلّى الله عليــه وســلم) ويبعــدون اســم المعجــزات والخــوارق عــن حياتــه يتجــاهلون هــذه الأحاديــث المتــواترة التــي بلغــت مــن الصــحة درجــة القطــع، فــلا يتحــدثون عنهــا ســلبا ولا إيجابــا كــأن كتــب الحــديث غيــر ممتلئــة بهــا، يعــدّ لكــل منهــا مــا قــد يزيــد علــى عشــرة طــرق. ومــن الواضــح أن ســبب هــذا التجاهــل هــو التهــرب مــن الإشــكال العــويص الــذي ســيواجهونه لــدى النظــر فــي هــذه الأحاديــث: إذ هـــي تنـــاقض فـــي خــط صــريح واضــح النظريـــة التـــي تطـــوف برؤوسهم .
ثالثــا: المعجــزة؛ كلمــة لا يوجــد لهــا معنــى ذاتــي عنــد التأمــل والتــدبّر، ومــا يــراد بهــا إنمــا هــو معنــى نســبي مجــرد. فــالمعجزة فيمــا تواضــع عليــه اصــطلاح النــاس كــل أمــر خــارج علــى المــألوف والعــادة. وكــل مــن المــألوف يتطــور بتطــور الأزمنــة والعصــور، ويختلــف بــاختلاف الثقافــات والمــدارك والعلــوم. فــربّ أمــر كــان قبــل فتــرة مــن الــزمن معجــزة فانقلــب اليــوم إلــى شــيء معــروف ومــألوف. وربّ أمــر مألوف في بيئة متمدنة مثقفة، ينقلب معجزة بين أناس بدائيين غير مثقفين.
بــل الحــق الــذي يفهمــه كــل عاقــل، أن المــألوف وغيــر المــألوف، معجــزة فــي أصــله. فالكواكـــب معجـــزة، وحركـــة الأفـــلاك معجـــزة، وقـــانون الجاذبيـــة معجـــزة، والمجموعـــة العصـــبية فـــي الإنســـان معجـــزة، والـــدورة الدمويـــة فيـــه معجـــزة، والــروح التــي فيــه معجــزة، والإنســان نفســه معجــزة، وكــم كــان دقيقــا ذلــك العــالم الفرنســي (شــاتوبريان) الــذي أطلــق علــى الإنســان اســم (الحيــوان الميتـــافيزيقي) أي الحيـــوان الغيبـــي المجهـــول. غيـــر أن الإنســـان ينســـى- مـــن طـــول الإلـــف واســتمرار العــادة- وجــه المعجــزة وقيمتهــا فــي هــذا كلــه، فيحســب جهــلا منــه وغــرورا أن المعجــزة هــي تلكــم التــي تفــاجئ مــا ألفــه واعتــاده فقــط! .. ثــم يمضــي

يتّخذ مما ألفه واعتاده مقياسا لإيمانه بالأشياء أو كفره بها! .. وهذا جهل عجيب من الإنسان مهما ترقى في مدارج المدنيّة والعلم! ..
وتأمل يسير من الإنسان، يوضح له بجلاء أن الإله الذي خلق معجزة هذا الكون كله، ليس عسيرا عليه أن يزيد فيه معجزة أخرى أو أن يبدل ويغيّر في بعض أنظمته التي أنشأ العالم عليها ولقد تأمل مثل هذا التأمل المستشرق الإنكليزي (وليم جونز) ، حينما قال:
«القدرة التي خلقت العالم، لا تعجز عن حذف شيء منه أو إضافة شيء إليه، ومن السهل أن يقال عنه أنه غير متصور عند العقل، لكن الذي يقال عنه أنه غير متصور، ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم!» .
يقصد أنه لو لم يكن هذا العالم موجودا، وقيل لواحد ممن ينكر المعجزات والخوارق ولا يتصور وجودها: سيوجد عالم كذا، فإنه سيجيب رأسا، إن هذا غير متصور، ويأتي نفيه لتصور ذلك أشد بكثير من نفيه لتصور معجزة من المعجزات. فهذا ما ينبغي أن يفهمه كل مسلم عن الرسول (صلّى الله عليه وسلم) وما أكرمه الله به من المعجزات.
ثانيا: موقع معجزة الإسراء والمعراج من الأحداث التي كانت تمرّ برسول الله (صلّى الله عليه وسلم) في ذلك الحين.
لقد عانى رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) ألوانا كثيرة من المحن التي لاقاها من قريش، وكان آخرها ما عاناه لدى هجرته إلى الطائف مما مرّ ذكره وبيانه. ولقد ظهر في دعائه الذي ناجى به ربّه بعد أن جلس يستريح في بستان ابني ربيعة ما يتعرض له كل بشر من الشعور بالضعف والحاجة إلى النصير وذلك هو مظهر عبودية الإنسان لله تعالى. وظهر في التجائه ذلك شيء من معنى الشكاة إليه سبحانه وتعالى، والطمع منه في عافيته ومعونته، ولعله خشي أن يكون الذي يلاقيه إنما هو بسبب غضب من الله عليه لأمر ما. ولذلك كان من جملة دعائه قوله: «إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي». فجاءت ضيافة الإسراء والمعراج من بعد ذلك تكريما من الله تعالى له، وتجديدا لعزيمته وثباته، ثم جاءت دليلا على أن هذا الذي يلاقيه عليه الصلاة والسلام من قومه ليس بسبب أن الله قد تخلّى عنه، أو أنه قد غضب عليه، وإنما هي سنّة الله مع محبيه ومحبوبيه. وهي سنّة الدعوة الإسلامية في كل عصر وزمن.
ثالثا: المعنى الموجود في الإسراء به (صلّى الله عليه وسلم) إلى بيت المقدس.
إن في الاقتران الزمني بين إسرائه عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس والعروج به إلى السموات السبع، لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى. وفيه دلالة واضحة أيضا على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى بن مريم ومحمد بن عبد الله عليهما الصلاة والسلام، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي ابتعثهم الله عزّ وجلّ به.
وفيه دلالة على مدى ما ينبغي أن يوجد لدى المسلمين في كل عصر ووقت، من الحفاظ على هذه الأرض المقدسة، وحمايتها من مطامع الدخلاء وأعداء الدين، وكأن الحكمة الإلهية تهيب بمسلمي هذا العصر أن لا يهنوا ولا يجبنوا ولا يتخاذلوا أمام عدوان اليهود على هذه الأرض المقدسة، وأن يطهروها من رجسهم، ويعيدوها إلى أصحابها المؤمنين.
ومن يدري؟ فلعل واقع هذا الإسراء العظيم هو الذي جعل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله يستبسل ذلك الاستبسال العظيم ويفرغ كل جهده في سبيل

صدّ الهجمات الصليبية عن هذه البقعة المقدسة حتى ردهم على أعقابهم خائبين.
رابعا: وفي اختيار النّبي (صلّى الله عليه وسلم) اللبن على الخمر حينما قدمها له جبريل عليه السلام دلالة رمزية على أن الإسلام هو دين الفطرة، أي الدين الذي ينسجم في عقيدته وأحكامه كلها مع ما تقتضيه نوازع الفطرة الإنسانية الأصيلة، فليس في الإسلام شيء مما يتعارض والطبيعة الأصيلة في الإنسان ولو أن الفطرة كانت جسما ذا طول وأبعاد، لكان الدين الإسلامي الثوب المفصل على قدره. وهذا من أسرار سعة انتشاره وسرعة تقبّل الناس له. إذ الإنسان مهما ترقى في مدارج الحضارة وغمرته السعادة المادية، فإنه يظل نزاعا إلى استجابة نوازع الفطرة لديه، ميالا إلى الانعتاق عن ربقة التكلفات والتعقيدات البعيدة عن طبيعته، والإسلام هو النظام الوحيد الذي يستجيب لأعمق نوازع الفطرة البشرية.
خامسا: كان الإسراء والمعراج بكل من الروح والجسد معا. على ذلك اتّفق جمهور المسلمين من المتقدمين والمتأخرين. قال النووي في شرح مسلم ما نصه:
«والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسري بجسده (صلّى الله عليه وسلم)، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل» .
ويقول ابن حجر في شرحه على البخاري: «إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسده وروحه، وإلى هذا ذهب جمهور من علماء الحديث والفقهاء والمتكلمين وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة ولا ينبغي العدول عن ذلك إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل» .
ومن الأدلة التي لا تقبل الاحتمال، على أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح، ما ذكرنا من استعظام مشركي قريش لذلك، وتعجبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له. إذ لو كانت المسألة مسألة رؤيا وكان إخباره إياهم لذلك على هذا الوجه، لما استدعى الأمر منهم أي تعجّب أو استعظام أو استنكار، لأن المرئيات في النوم لا حدود لها، بل يجوز مثل هذه الرؤيا حينئذ على المسلم والكافر. ولو كان الأمر كذلك لما سألوه أيضا عن صفات بيت المقدس وأبوابه وسواريه بقصد الإلزام والتّحدي.
أما، كيف تّمت هذه المعجزة، وكيف يتصورها العقل؟ فكما تتم كل معجزة غيرها من معجزات الكون والحياة! .. لقد قلنا آنفا أن كل مظاهر هذا الكون ليست في حقيقتها إلا معجزات، فكما تتصورها العقول في سهولة ويسر يمكن لها أن تتصور هذه أيضا في سهولة ويسر.
سادسا: احذر وأنت تبحث عن قصة الإسراء والمعراج أن تركن إلى ما يسمى ب (معراج ابن عباس) فهو كتاب ملفّق من مجموعة أحاديث باطلة لا أصل لها ولا سند، وقد شاء ذاك الذي فعل فعلته هذه أن يلصق هذه الأكاذيب بابن عباس رضي الله عنه، وقد علم كل مثقف بل كل إنسان عاقل أن ابن عباس بريء منه، وأنه لم يؤلف أي كتاب في معراج الرسول (صلّى الله عليه وسلم)، بل وما ظهرت حركة التأليف إلا في أواخر عهد الأمويين. ولما وقف دعاة السوء على هذا الكتاب ووجدوا فيه من الأكاذيب المنسوبة إلى رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) ما يكفل زعزعة إيمان الكثيرين من الناس، راحوا يروجون له ويدعون إليه (وكان في جملة من كتب عنه مادحا ومعظما

الـــدكتور لـــويس عـــوض، ومـــا أدراك مـــن هـــو لـــويس عـــوض) ، مـــع أنهـــم يعلمـــون قبـــل ســـائر النـــاس أنـــه كتـــاب مكـــذوب علـــى ابـــن عبـــاس وأن أحاديثـــه باطلـــة، ولكـــن الكـــذب ســـرعان مـــا ينقلـــب عنـــدهم صـــحيحا إذا كـــان فيـــه مـــا يشـــوش أفكـــار المســـلمين ويلبس عليهم دينهم.